الفصل الثاني

التعب والترحال من أجل ضبط العلم!!

علىٰ الرغم من أن علماءنا عرفوا أن الله سبحانه تكفّل بحفظ الشريعة الإسلامية .

كما ورد في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وكما ورد في القرآن عن سنة رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣-٤] .

علىٰ الرغم من هذا الحفظ ، فقد قام العلماء بجهود لا مثيل لها ، وتعبوا في سبيل ذلك تعباً كثيراً ، والهدف هو المساهمة في حفظ العلوم الشرعية وضبطها الضبط الأكيد ، ولذلك كله اهتموا كثيراً بمسألة الإسناد ، حتىٰ قيل : الإسناد خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية ، ورحم الله عبد الله بن المبارك عندما قال : الإسناد عندي من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء : ما شاء!![1] .

ورحم الله الإمام الشافعي عندما قال : مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعىٰ وهو لا يدري!!

ورحم الله ابن حزم عندما قال : نَقْلُ الثقة عن الثقة ، حتى يبلغ به

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٦/ ١٦٧ .

النبي ﷺ ، مع الاتصال ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه ، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان : خصَّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها ، وأبقاه عندهم غضّاً جديداً علىٰ قديم الدهور ، يرحل في طلبه إلىٰ الآفاق البعيدة من لا يُحصي عددهم إلا خالقهم ، ويواظب علىٰ تقييده من كان الناقل قريباً منه .

قد تولّىٰ الله حفظه عليهم والحمد لله رب العالمين ، فلا تفوتهم زلّة في كلمة فما فوقها ، في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم ، ولا يُمكنُ فاسقاً أن يُقحم كلمةً موضوعةً ، ولله تعالىٰ الشكر[1] .

وفي التاريخ الإسلامي السامي أمثلة رائعة عن الفائدة من الإسناد ، فعن ابن عليّة وإسحاق بن إبراهيم ، قالا : أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال : لأُريح العباد منك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتُها فيكم! أحرِّمُ فيها الحلال ، وأحللُ فيها الحرام ، ما قال النبي صلوات الله عليه منها حرفاً!!

فقال له هارون : وأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ، ينتخلانها نخلاً ، فيخرجانها حرفاً حرفاً[2] .

وفي سنة (٤٤٧هـ) زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، أظهر بعض اليهود كتاباً ، ادّعوا فيه أنه كتاب رسول الله إلى أهل خيبر بإسقاط الجزية عنهم!!

وفي الكتاب شهادة بعض الصحابة بذلك ، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه فيه ، وجاؤوا بالكتاب إلى رئيس الرؤساء أبي القاسم

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٢/ ٨٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي : ١/ ٢٧٤ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ١/ ١٥٢ .

علي بن الحسن وزير القائم بأمر الله ، فعرضه رئيس الرؤساء على الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالىٰ ، فتأمَّلهُ ثم قال : هذا كذب مزوّر ، فقيل له : من أين لك هذا ؟

قال : فيه شهادة معاوية ، وهو إنما أسلم عام فتح مكة ـ وكان فتحها عام (٨هـ) بينما كان فتح خيبر في السنة السابقة أي عام (٧هـ) ـ ، وفيه شهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وهو قد مات يوم بني قريظة قبل فتح خيبر بسنتين ، فاستحسن ذلك منه رئيس الرؤساء واعتمده وأمضاه ، وردّ اليهود شرّ ردٍّ لظهور تزوير الكتاب[1] .

ولمعرفة مدىٰ اهتمام العلماء بالسند والضبط والتحرّي ، يكفي النظر إلىٰ الكتاب الذي جمعه الإمام البخاري ، بحيث نرىٰ في صحيحه : ألفين وستمئة واثنين من الأحاديث المسندة ، سوىٰ المكررة ، والعجيب أن البخاري انتقاها من مئة ألف حديث صحيح يحفظها ! !

وفيه قريب من ألفي راوٍ ، اختارهم من نيّف وثلاثين ألفاً من الرواة الثقات الذين يعرفهم .

وفي هذا من الدقة والضبط والاهتمام بالسند ما لا نظير له عند كل الأمم .

ورحم الله الإمام الشاطبي عندما قال : جعلوا الإسناد من الدين ، ولا يعنون ـ العنعنة ـ مجرداً ، بل يريدون ذلك لما تضمّنه من معرفة الرجال الذين يحدّثُ عنهم ، حتىٰ لا يُسند عن مجهول ولا مجروحٍ ولا مُتّهم ، إلا عمن تحصلُ الثقة بروايته ، لأن روح المسألة أن يغلب علىٰ الظن من غير ريبة أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ ، لنعتمد عليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١٢/ ١٠٢ ، طبقات الشافعية للسبكي : ٣/ ١٥ .

في الشريعة ، ونُسند إليه الأحكام[1] .

وامتد السند واتسع حتىٰ شمل ـ عند المسلمين ـ كل العلوم ، فالتفسير نُقل بالسند ، والحديث النبوي نُقل بسند ، وشرح الأحاديث . . والشعر ، والتاريخ ، والفقه . . ! بل وحتىٰ الأمور التي تُقال للتسلية كأخبار المجانين والمغفلين والحمقىٰ والأذكياء وما إلى هنالك ، نُقلت عن طريق الإسناد ، مثال ذلك كتاب (عقلاء المجانين) للنيسابوري (ت : ٤٠٦هـ) .

أجل : لقد تعب الأسلاف كثيراً ، وضحّوا بالغالي والنفيس في سبيل الحصول علىٰ أمور علمية ، ومن ثم إيصالها وتبليغها للناس .

وفي القرآن مثال حيّ لما حدث مع نبي الله موسىٰ عليه السلام ، حيث أنه كابد الصعاب والمشاق من أجل العلم لله وحده .

لقد رحل موسىٰ عليه السلام مع غلام له إلىٰ حيث يوجد العبد الصالح ، لماذا ؟ كي يتعلّم منه!! وهو النبي المرسل ، واحد من أولي العزم ، يرحل إلى عبدٍ من عباد الله من أجل العلم ! ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ

---

(١) الاعتصام : ١/٢٢٦ .

إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠-٨٢] .

وقد أوردت كتب الأحاديث الشريفة قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر كاملة :

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إنَّ موسىٰ قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئل : أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه ، إذ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحىٰ الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين ، هو أعلم منك .

قال موسىٰ : يا رب ، فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً ، فتجعله في مِكْتل ـ قفّة ـ فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثمَّ ، فانطلق موسىٰ ، ومعه فتاه ـ

يوشع بن نون ـ حتىٰ إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما ، فناما واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ .

وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يخبره عن الحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسىٰ لفتاه : ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ .

ـ قال : ولم يجد موسىٰ النَّصب حتىٰ جاوز المكان الذي أمره الله به ـ فقال فتاه : ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ .

قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسىٰ وفتاه عجباً ، فقال موسىٰ : ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ . قال : رجعا يقصان آثارهما ، حتىٰ انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجىً بثوب ، فسلّم عليه موسىٰ ، فقال الخضر : وأنىٰ بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسىٰ ، قال : موسىٰ بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ .

يا موسىٰ ، إني علىٰ علم من علم الله ، لا تعلمه ، علّمنيه ، وأنت علىٰ علم من علم الله علّمكه ، لا أعلمه ، فقال موسىٰ : ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ فقال له الخضر : ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمشيان علىٰ الساحل ، فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نَوْل ـ أي أجر ـ فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدُّوم ، فقال له موسىٰ : قوم قد حملونا بغير

نول ، عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها : ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً ، وجاء عصفور ، فوقع علىٰ حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالىٰ إلا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر!

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان علىٰ الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله .

فقال له موسىٰ : ﴿أقتلت نفساً زكيةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نكراً﴾ قال : ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال سفيان : وهذه أشدّ من الأولىٰ .

﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتىٰ إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه .

فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا : ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال الخضر : ﴿هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسىٰ ، لوددت أنه كان صبر ، حتىٰ يقص الله علينا من أخبارهما »[1] .

وعقّب الإمام ابن حجر العسقلاني علىٰ هذا الحديث بقوله :

---

(١) للتوسع يراجع : التفسير الكبير للرازي : ٢١/ ٢٤٢ ، الكشاف للزمخشري : ٢/ ٢٦٣ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠/ ٤٢٦ .

هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب الحديث ، لأن ما يُغتبط به تُحتمل المشقة فيه ، ولأن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من السيادة : المحلّ الأعلىٰ ، من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوب البحر في طلب العلم ، بل في طلب الاستكثار منه ، ومشروعية حمل الزاد في السفر ، ولزوم التواضع في كل حال ، وخضوع الكبير لمن يتعلم منه ، ولهذا حرص موسىٰ علىٰ الالتقاء بالخضر عليهما السلام ، وطلب التعلم منه تعليماً لقومه أن يتأدَّبوا بأدبه ، وتنبيهاً لمن زكىٰ نفسه أن يسلك مسلك التواضع ، وفيه فضل الازدياد من العلم ولو مع الشقة والنصب بالسفر[1] .

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالىٰ في تعليقة علىٰ هذه القصة : ـ وهو يعدّد فضائل شرف العلم وأهله ـ :

الوجه الرابع والثلاثون : أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيّه وكليمه ، الذي كتب له التوراة بيده ، وكلّمه منه إليه : أنه رحل إلى رجلٍ عالم يتعلّم منه ، ويزداد علماً إلىٰ علمه ، فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] . حرصاً منه على لقاء هذا العالم ، وعلىٰ التعلم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلّم مع معلّمه ، وقال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

فبدأه بعد السلام بالاستئذان علىٰ متابعته ، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه ، وقال : ﴿علىٰ أن تعلمني مما علمت رشداً﴾ فلم يجئ ممتحناً

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ١/ ١٥٣ .

ولا متعنتاً ، وإنما جاء متعلّماً مستزيداً علماً إلىٰ علمه .

وكفىٰ بهذا فضلاً وشرفاً للعلم ، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتىٰ لقي النَّصَب من سفره ، في تعلّم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولما سمع به لم يقرَّ له قرار حتىٰ لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم[1] .

وعلىٰ هذا المنوال سار الصحب الكرام ، ومن بعدهم ، يقطعون المسافات الشاسعة لسماع حديث أو تفسير آية أو حكم مسألة شرعية ، ولم يكن وقتئذٍ سوىٰ المشي علىٰ الأقدام . . . !!

ورحم الله الفيلسوف الإسلامي ابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) عندما قال :

إنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة : مزيد كمال في التعليم ، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلّون به من المذاهب والفضائل ، تارةً : علماً وتعليماً ولقاءً ، وتارةً : محاكاة وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أَنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين ، أشدّ استحكاماً وأقوىٰ رسوخاً ، فعلىٰ قَدْر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها وتفتحها .

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلِّطة على المتعلِّم ، حتىٰ لقد يظنُّ كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين .

فلقاء أهل العلوم ، وتعدّد المشايخ : يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهما فيها ، فيجرّه العلم فيها ، ويعلم أنها أنحاء تعليم

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٧ .

وطُرق توصيل ، وتنهض قواه إلىٰ الرسوخ والاستحكام في الملكات ، ويصحّح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين ، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، وهذا لمن يسّر الله عليه طرق العلم والهداية .

فالرحلة لابد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمال ، بلقاء الشيخ ، ومباشرة الرجال :

﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

ورحم الله الإمام ابن جماعة عندما قال . . ـ وهو يتحدث عن آداب المتعلم في نفسه : ـ . . الثالث : أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلىٰ التحصيل ، ولا يغتر بخُدع التسويف والتأميل ، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب ، وبذل الاجتهاد ، وقوة الجد في التحصيل ، فإنها كقواطع الطريق .

ولذلك استحبّ السلف التغرّب عن الأهل ، والبُعد عن الوطن ، لأن الفكرة إذا توزّعت قصُرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق ، ولذلك يقال : العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلك[1] .

ورحم الله المحدث ابن رشيد السّبتي (ت : ٧٢١هـ) عندما كان ينشد :

فغرِّب ولا تحفِل بفُرقة موطنٍ تَفُزْ بالمُنىٰ في كل ما شئت من حاجِ
فلولا اغتراب المسك ما حلَّ مَفْرِقاً ولولا اغترابُ الدُّر ما حلَّ في التاج

ورحم الله التابعي الجليل (عامر بن شراحيل) (ت : ١٠٣هـ) :

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم : ٧٠ـ٧٥ .

فقد رحل من الكوفة إلىٰ مكة في ثلاثة أحاديث ذُكرت له!!

فقال : لعلي ألقى رجلاً لقي النبي ﷺ ، أو : من أصحاب النبي ﷺ[1] .

ورحم الله الإمام أبا عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني (ت : ١٧٦هـ) ـ وهو أحد أصحاب مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم ـ عندما قال عن نفسه :

لما أتيت الكوفة ، وأكثر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش ، فسألت عنه فقيل له : غضب علىٰ أهل الحديث ، فحلف أن لا يُسمعهم مدة .

فكنت أختلف إلىٰ باب داره لعلي أصل إليه ، فلم أقدر علىٰ ذلك! فجلست يوماً علىٰ بابه وأنا متفكّر في غربتي وما حُرمته من السماع منه! إذ فتحت جارية بابه يوماً وخرجت منه ، فقالت لي : ما بالك علىٰ بابنا ؟!

فقلت : أنا رجل غريب ، وأعلمتها بخبري .

قالت : وأين بلدكم ؟ قلت : إفريقية ، فانشرحت لي وقالت : تعرف القيروان ؟

قلت : أنا من أهلها ، قالت : تعرف دار ابن فروخ ؟ قال : أنا هو ، فتأمّلتني ثم قالت : عبد الله ؟ قلت : نعم ، وإذا هي جاريةٌ كانت لنا بعناها صغيرة ، فسارعت إلى الأعمش وقالت له : إن مولاي الذي كنت أخبرك بخبره بالباب ، فأمرها بإدخالي فدخلت ، وأسكنني بيتاً قبالة بيته ، فسمعت منه وحدّثني ، وقد حرم سائر الناس ، إلىٰ أن قضيت إربي منه .

---

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي : ٢٢٥ .

وذكر المالكي عنه أنه رحل قديماً ، فلقي الشيوخ والفقهاء ، وسمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة غير مدوّنة ، يقال إنها عشرة آلاف مسألة ، وذكر أنه قال : سقطتْ آجرة من أعلىٰ دار أبي حنيفة ـ وأنا عنده ـ على رأسي فأُدمي! فقال : اختر الأرش ـ الدِّية ـ أم ثلاثمئة حديث ؟

قلت : الحديث ، فحدثني[1] .

وأما الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقد طاف الدنيا مرتحلاً من مكان إلىٰ آخر لا لشيء من متاع الدنيا ، إنما من أجل تحصيل العلم ، وقال عن نفسه :

رحلت في طلب العلم والسنّة إلىٰ الثغور ، والشامات ، والسواحل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عُدت إلى بغداد .

وخرجتُ إلى الكوفة ، فكنت في بيتٍ تحت رأسي لبنةٌ ، فحُممتُ! فرجعتُ إلى أمي رحمها الله ولم أكن استأذنتها ، ولو كان عندي تسعون درهماً كنتُ رحلت إلىٰ جرير بن عبد الحميد إلى الريّ ، وخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج ، لأنه لم يكن عندي شيء!![2] .

وأما الحافظ بقيُّ بن مخلد الأندلسي (ت : ٢٧٦هـ) رحمه الله تعالىٰ ، فكان له قصص عجيبة في الترحال من أجل لقاء العلماء والأخذ عنهم ، يقول عن نفسه :

. . ولما قربتُ من بغداد اتصل بي خبر المحنة التي دارت علىٰ

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ١/ ٢٤٢ .

(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير : ١٠/ ٣٣٦ .

أحمد بن حنبل ، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه ، فاغتممت بذلك غماً شديداً ، فاحتللتُ الموضع ، فلم أُعرّج علىٰ شيء بعد إنزال متاعي في بيت اكتريته في بعض الفنادق ، أن أتيتُ المسجد الجامع الكبير ، وأنا أريد أن أجلس إلىٰ الحِلَق وأسمع ما يتذاكرونه ، فدُفعت إلىٰ حلقة نبيلة ، فإذا برجل يكشف عن الرجال ، فيضعّف ويقوّي ، فقلت : من هذا ؟ لمن كان قُربي ، فقال : يحيىٰ بن معين ، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قربه ، فقمت إليه فقلت : يا أبا زكريا رحمك الله ، رجل غريبٌ نائي الدار ، أردتُ السؤال فلا تستخفّني ، فقال لي : قل ، فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث ، فبعضاً زكّى ، وبعضاً جرَّح .

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمار ، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه ، فقال : أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة ، دمشقي ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر أو تقلّد كبراً ما ضرّه شيئاً لخيره وفضله ، فصاح أهل الحَلْقة : يكفيك رحمة الله عليك ، غيرك له سؤال!

فقلت وأنا واقف على قدميَّ : أكشفُك عن رجل واحد ـ أي أسألك عنه ـ : أحمد بن حنبل ؟

فنظر إليَّ يحيىٰ بن معين كالمتعجّب وقال لي : ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل ؟! إن ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم .

ثم خرجتُ أستدل علىٰ منزل أحمد بن حنبل ، فدللتُ عليه ، فقرعت بابه ، فخرج إليّ وفتح الباب ، فنظر إلى رجلٍ لم يعرفه ، فقلت : يا أبا عبد الله! رجل غريب الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيّد سنّة ، ولم تكن رحلتي إلا إليك ، فقال لي : ادخل الأسطوان ـ أي ممر الدار ـ ولا تقع عليك عين .

فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال لي :

إفريقية ؟ فقلت : أبعد من ذلك ، فقال لي : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحب إليَّ من أحسن عون مثلك علىٰ مطلبه ، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك ، فقلت له : بلىٰ قد بلغني وأنا قريب من بلدك مقبل نحوك .

فقلت له : يا أبا عبد الله ، هذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السُّوَّال ، فأقول عند باب الدار ما يقولونه ، فتخرج إلىٰ هذا الموضع ، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية ، فقال لي : نعم ، على شرط أن لا تظهر في الحلق ولا عند أصحاب الحديث ، فقلت : لك شرطك ، فكنت آخذ عوداً بيدي ، وألفُّ رأسي بخرقة ، وأجعل كاغدي ـ ورقي ـ ودواتي في كمّي ، ثم آتي بابه فأصيح : الأجر رحمكم الله ، والسؤال هنالك كذلك ، فيخرج إلي ويغلق باب الدار ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، حتى اجتمع لي نحو من ثلاثمئة حديث .

فالتزمت ذلك حتىٰ مات الممتحنُ له ، وولي بعده من كان علىٰ مذهب السنة ، فظهر أحمد بن حنبل ، وسما ذكره ، وعظم في عيون الناس ، وعلت إمامته ، وكانت تُضرب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حقَّ صبري .

فكنت إذا أتيت حلْقته فسح لي وأدناني من نفسه ، ويقول لأصحاب الحديث : هذا يقع عليه اسم طالب العلم ، ثم يقصّ عليهم قصتي معه ، فكان يناولني الحديث مناولةً ، ويقرؤه علي ، وأقرؤه عليه .

فاعتللت علّة أشفيت منها ، فقعدني من مجلسه فسأل عني ، فأُعلم بعلّتي ، فقام من فوره مقبلاً إليّ عائداً لي بمن معه ، وأنا مضطجع في البيت الذي كنتُ اكتريتُ ، ولِبْدي تحتي ، وكسائي عليّ ، وكتبي عند رأسي .

فسمعت الفندق قد ارتجّ بأهله وأنا أسمعهم يقولون : هو ذاك ، أبصروه ، هذا إمام المسلمين مقبلاً ، فبدر إليّ صاحب الفندق مسرعاً ، فقال لي : يا أبا عبد الرحمن هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائداً لك .

فدخل فجلس عند رأسي وقد احتشى البيتُ من أصحابه فلم يسعهم ، حتى صارت فرقة منهم في الدار وقوفاً وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني علىٰ هذه الكلمات :

قال : يا أبا عبد الرحمن : أبشر بثواب الله ، أيام الصحة لا سَقَم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلىٰ العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه .

ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ، ويخدمونني ديانةً وحسبةً ، فواحد يأتي بفراش ، وآخر بلحافٍ وبأطايب من الأغذية ، وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لو كنتُ بين أظهرهم ، لعيادة الرجل الصالح لي[1] .

أجل : سار (بقي بن مخلد) رحمه الله من الأندلس إلىٰ مصر والشام والحجاز وبغداد ، طلباً للعلم ، وامتدّت الرحلة الأولىٰ أربعة عشر عاماً ، والثانية عشرين عاماً ، وكل ذلك كان مشياً علىٰ القدمين ! !

ورحم الله الإمام الرازي (ت : ٢٧٧هـ) فقد قطع المسافات التي يعجز طالب علم في زماننا هذا أن يقطعها ، وذلك بهدف تحصيل العلم فقط ، يقول ابنه عن ذلك : سمعت أبي يقول : أول ما خرجت في طلب

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٣/ ٢٩٢ ، المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، للعليمي : ١/ ١٧٧ .

الحديث أقمت سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميَّ زيادةً علىٰ ألف فرسخ ـ ويقدّر كل فرسخ بخمسة كيلومترات ـ وأما ما كنتُ سرت أنا من الكوفة إلىٰ بغداد فما لا أُحصي كم مرة ، ومن مكة إلىٰ المدينة المنورة مرات كثيرة ، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا ـ في المغرب ـ إلىٰ مصر ماشياً ، ومن مصر إلىٰ الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلىٰ بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلىٰ دمشق ، ومن دمشق إلىٰ حمص ، ومن حمص إلىٰ أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرسوس ، ثم أرجعت من طرسوس إلىٰ حمص ، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته ، ثم خرجت من حمص إلىٰ بيسان ، ومن بيسان إلىٰ الرقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلىٰ بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلىٰ الشام من واسط إلىٰ النيل ، ومن النيل إلىٰ الكوفة ، كل ذلك ماشياً ، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة ، أجول سبع سنين ، خرجت من الري سنة (٢١٣هـ في شهر رمضان) ، ورجعت سنة (٢٢١هـ) .

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ، ورجعت سنة خمس وأربعين ، أقمت ثلاث سنين ، وكانت سني في هذه الرحلة (٤٧ سنة)!!![1] .

ورحم الله الإمام (ابن المقرئ) (ت : ٣٨١هـ) والذي جاء في ترجمة حياته :

الإمام الرحال الحافظ الثقة ، قال أبو طاهر أحمد بن محمود : سمعت ابن المقرئ يقول :

طُفتُ الشرق والغرب أربع مرات!!

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي : ٣٦٠ .

وروىٰ اثنان عنه أنه قال : مشيت بسبب نسخة (المفضل بن فضالة المصري) سبعين مرحلة ، ولو عُرضت علىٰ خبازٍ برغيف لم يقبلها! ودخلت بيت المقدس عشر مرات!![1] .

ورحم الله الإمام الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) والذي لاقىٰ ما لاقاه في سبيل العلم ، ومما قاله ابن خلكان : سمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجلي الزمخشري كانت ساقطة ، وأنه كان يمشي في جارن خشب ، وكان سبب سقوطها ، أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق ، فسقطت منه رجله ، وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلقٍ كثير مما اطّلعوا علىٰ حقيقة ذلك ، خوفاً من أن يظنّ من لم يعلم صورة الحال ، أنَّها قُطعت لريبة!

والثلج والبرد كثيراً ما يُؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط! خصوصاً خوارزم فإنها في غاية البرد ، وقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه[2] .

ورحم الله شيخ الإسلام ، أبو الوقت عبد الأول السجزي الهروي (ت : ٥٥٣هـ) ، فقد لاقىٰ في سبيل العلم الشيء الكثير ، من ذلك ما حدث به تلميذه يوسف الشيرازي فقال :

لما رحلت إلىٰ شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت ، قدّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد (كرمان) فسلّمت عليه ، وقبّلته ، وجلست بين يديه ، فقال لي : ما أقدمك هذه البلاد ؟ قلت : كان قصدي إليك ، ومعوّلي بعد الله عليك ، وقد كتبت ما وقع إليّ من حديثك بقلمي ، وسعيتُ إليك بقدمي ، لأُدرك بركة أنفاسك ، وأحظىٰ بعلوّ إسنادك .

---

(١) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي : ٣/ ٩٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢/ ٨٢ .

فقال : وفّقك الله وإيانا لمرضاته ، وجعل سعينا له ، وقصْدنا إليه ، لو كنتَ عرفتني حقّ معرفتي ، لما سلّمت عليّ ، ولا جلستَ بين يديَّ ، ثم بكىٰ بكاءً طويلاً ، وأبكىٰ من حضره ، ثم قال : اللهم استرنا بسترك الجميل ، واجعل تحت الستر ما ترضىٰ به عنا .

يا ولدي ، تعلمُ أني رحلت أيضاً لسماع (الصحيح) ماشياً مع والدي ، من هراة إلى الداوديِّ ببوشَنْج ، ولي من العمر دون عشر سنين ، فكان والدي يضع علىٰ يديَّ حجرين ، ويقول : احملهما ، فكنت من خوفه أحفظهما بيديَّ ، وأمشي وهو يتأمَّلني ، فإذا رآني قد عييتُ أمرني أن أُلقي حجراً واحداً ، فألقي ، ويخفُّ عني ، فأمشي إلىٰ أن يتبين له تعبي ، فيقول لي : هل عييت ؟ فأخافه وأقول : لا ، فيقول : لم تقصّر في المشي ؟ فأسرع بين يديه ساعةً ، ثم أعجزُ ، فيأخذ الحجر الآخر فيلقيه ، فأمشي حتىٰ أعطب ، فحينئذٍ كان يأخذني ويحملني ، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم ، فيقولون : يا شيخ عيسىٰ ، ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلىٰ (بوشنج) ، فيقول والدي : معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ، بل نمشي ، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ورجاء ثوابه ، فكان ثمرة ذلك من حُسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره ، ولم يبق من أقراني أحدٌ سواي ، حتىٰ صارت الوفود ترحل إليّ من الأمصار .

ثم أشار إلىٰ صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يقدّم لي حلواء ، فقلت : يا سيدي ، قراءتي لجزء أبي الجهم أحبّ إليّ من أكل الحلواء ، فتبسم ، وقال : إذا دخل الطعام ، خرج الكلام ، وقدّم لنا صحناً فيه حلواء الفانيذ ، فأكلنا ، وأخرجت الجزء ، وسألته إحضار الأصل فأحضره ، فقرأت الجزء ، وسررت به ، ويسّر الله سماع

(الصحيح) وغيره مراراً ، ولم أزل في صحبته وخدمته إلىٰ أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء سادس ذي القعدة سنة ٥٥٣هـ ، ودفناه بالشونيزية ، قال لي : تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية .

ولما احتضر سندته إلىٰ صدري ، وكان لهجاً منهمكاً بالذكر ، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي ، وأكبَّ عليه ، وقال : يا سيدي ، قال النبي ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »[1] . فرفع طرفه إليه وتلا : ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس : ٢٦ـ٢٧] .

فدهش محمد بن القاسم ومن حضر من الأصحاب ، ولم يزل يقرأ حتىٰ ختم السورة وقال : الله الله ، وتوفي وهو جالس على السجادة رحمه الله تعالىٰ[2] .

أجل :

تلك لقطات مما لاقاه العلماء الأفذاذ من تعب ونصب وتطواف في الأرض ، لا من أجل منفعة دنيوية ، إنما من أجل تلقي العلم ولقاء العلماء .

لقد قُطعت من أعمارهم الأيام والسنوات ، حتىٰ إن البعض أمضى قرابة الأربعين عاماً ، بعيداً عن وطنه وأهله[3] .

وكان جزاء هذا الصبر على تحمّل المشاق في سبيل العلم أن أصبحوا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ، والحاكم في المستدرك . [كنز العمال للمتقي الهندي : ١/ ٤١٨] .

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي : ٢٠/ ٣٠٣ـ٣٠٦ .

(٣) وللتوسع يراجع : الرحلة في طلب الحديث للحافظ الخطيب البغدادي ، وصفحات من صبر العلماء للمرحوم عبد الفتاح أبو غدة ، وغير ذلك من كتب السير والتراجم .

أئمة أعلاماً يُقتدىٰ بهم ، وأصبحوا منارات للأجيال القادمة ، لأمل المستقبل ، للشباب ، وعند الله نالوا الرضا والتوفيق والسعادة .

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا نسير علىٰ خطّ العلم ، وأن يجعل هذه النماذج قدوة وأسوة لنا ، وأن يرينا في الدنيا نتائج وعده ، وأن يجعل الإخلاص رائدنا في القول والعمل ، إنه علىٰ ما يشاء قدير .

❊ ❊ ❊